من كتب الشرق والغرب

LA PATRIE SE FAIT TOUS LES JOURS

ETIEMBLE

الوطن يخلق كل يوم*

منذ ظهر المنشور الشيوعى من نحو قرن ، ساءت سمعة الوطنية . وبينما كان البعض يعلمنا أن « لا وطن للعمال » ، كان الآخرون يؤكدون لنا، وهم يصوبون غدارتهم إلى رءوسنا ، أن العمال لا يملكون إلا وطنهم . وأمست الأوطان منكرة تحت ضغط الدوليات الاشتراكية من ناحية ، والدوليات الفاشية الاستبدادية من ناحية أخرى . وأخذ المرء يعلن — على أسوأ الفروض قوميته (بشرط أن تكون قومية تامة). أما الوطنية فقد صارت شيئاً قديماً يثير السخرية .

و إن من أروع نتائج هذه الحرب وما صحبها من الاستبداد النازى ، لهو عودة الوطنية إلى القلوب التى كانت قد نفرت منها . وقد قال فرنسوا مورياك ، ولكلامه اعتباره بوصفه بورجوازيا وكاثوليكيا ، إن طبقة العمال فى بلادنا قد ضربت أعظم مثل للوطنية الخالصة. وعندما قام هتلر يناهض الأوطان ليقيم أوربا التى عمها الضباب والظلام ، أثار بذلك الأوطان على أوربا ، و بينما نرى التروتسكيين يسجلون هذه القوة الجديدة ويأسفون لها ، نرى الأحزاب الستالينية تطالب بالسيطرة عليها .

فما هى هذه الوطنية التى تلوكها الألسن اليوم ، والتى يريد كل واحد أن يحتكرها لنفسه ؟ أنا لا أعرف صفحات — فيما يختص بهذا — أدق وأوضح من تلك التى كتبها جان بولان Jean Paulhan مقدمة للنصوص الفرنسية التى جمعها هو ودومينيك أورى Dominique Aury من بين أروع ما ظهر أثناء

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

لحرب[١]. وهو يقول إنه جمعها للأطفال ، و إن المرء يتمنى أن يصير جميع الكبار أطفالا ، ولو لمدة نصف ساعة ، ليقرءوا هذه الأفكار . وبولان لايخدع فى كلامه ، فهو يقول : «هناك أكثر من مؤلف وطنى يشبه آلة حربية، معدة للحرب ضد بلد ما ، ضد النرويج أو ضد التبت ، ثم إنك لواجد فى تلك المؤلفات كل أنواع المدح مختلطة مضطربة، وهى على العموم يناقض بعضها بعضا . فاذا كانت جان دارك تحسن إذ تنصت لما تسمعه من أصوات ، فان فولتير يسىء إذ يسخر من جان دارك المنصتة لأصواتها . و إذا كان لنا أن نفخر بنابليون فلا يجدر بنا أن نفخر أكثر من اللازم بالقديس فرنسوا دى سال Saint François de Sales ثم إنه لا يمكن فرنسا أن تكون فى الوقت نفسه ابنة الكنيسة وأم التفكير الحر ؛ ولا أن تكون ضيعة الملوك الكابتيين Capétiens ومسيح الأمم . فلا بد لنا من اختيار أحد الجانبين » .

وبعضنا يؤثر نابليون على القديس فرنسوا دى سال ، والبعض الآخر يؤثر القديس فرنسوا دى سال على نابليون. وهكذا يقتطع كل واحد من وطنه ، وطناً عقليا ، وطناً مسبباً معقولا فلا يلبث أن يصبح غير معقول . « فالجمهوريون فى عام ١٨٧٠ لم يغضبوا عندما هزم نابليون ، كما لم يغضب الرجعيون فى عام ١٩٤٠ عندما دحرت الجمهورية . » والعاطفيون على صواب إذن حينما يزعمون أنه ليس وطنياً ، ولن يكون وطنياً ذلك الذى لا يحب بلده إلا لأسباب معينة .

وهناك فى الواقع نوع آخر من الوطنية ، لا يهتم إطلاقاً بالرسالات أو بالمبادئ ، « ظل خفيف منعطف ، هو ظل جدتنا وهى تهرع للقائنا حين ندخل . . . بيت صغير (غير منظم) شمس غاربة ، رقة فى الهواء (الذى نتقاسمه عن رضا) ، امرأة لا تريد مطلقا أن نتقاسمها » ، كل هذا يكون دوافع تلك الوطنية ، دوافع يصدرها القلب والسمع والنظر والشم : عبير أزهار الغابة ، أو عطر الياسمين أو « الجاردينيا » . لقد عرفت شخصاً مات فى دنكرك لأنه كان يحب رائحة ذلك الهواء الخانق المندفع من فتحات التهوية على حافة أفاريز النفق التى يسير بها المترو بباريس .

« فعلى المرء إذن أن يمزج فى نفسه

(١) Jean Paulhan et Dominique Aury: *La patrie se fait tous les jours.* Textes Français 1939-1945. Les Editions de Minuit, 1947.

بين العقل والعاطفة ليكون وطنيا حقا، عليه أن يحب وطنه كما هو . كما عليه أيضاً أن يريد لوطنه أن يصبح وطناً آخر ، وأن يصمم على أن يخلق منه وطناً عادلا ومعقولا ، ولكن عليه مع ذلك أن يحب وطنه ولو كان غير عادل أو غير معقول . وبالاختصار عليه أن يعبده ، ولكن لا يجدر به أن يخضع له دون أن يحاول التأثير فيه . »

وسواء أكان أولئك المؤلفون الستون الذين حشدوا فى ذلك الكتاب عقليين مثل جوليان بندا Julien Benda أو عاطفيين مثل جان جيهينو Jean Guéhenno ، أو ممن جمعوا بين العاطفة والعقل مثل جان بولان Jean Paulhan فانهم جميعاً كانوا طيلة خمس سنوات يخلقون الوطن من جديد كل يوم . « ومن الخير أن نفتح ذلك الكتاب حيثما اتفق ، كما تفتح ديواناً من الشعر ، ثم تدعه بعدئذ . ومن الخير أن تحتفظ به فى متناول اليد وأن تقلب صفحاته فتحنق عليه حيناً وترضى عنه حيناً آخر ، وأن تثق بما يثير فيك من آراء أكثر من ثقتك بما يحتويه من آراء . وسترى هكذا أنه كتاب مشوق إلى أقصى حد ، بل سترى أنه كتاب مثير . » ومن الخير — بعد أن تتعرف عليه بهذه الطريقة — أن تعاود قراءته من أول سطر إلى آخر سطر ، كما تفعل بالروايات البوليسية ، من الخير أن تقرأه من أول المقالات التى كتبت عن ميونخ إلى تلك التى كتبت عن الجمهورية الرابعة . فميونخ ، ومهزلة الحروب ، والاحتلال والنفى ، والثورة ، والتحرير ، هى فى الواقع مأساة ذات فصول ، إذا كان من الممكن أن تنتهى مأساة بانتصار الخير . نعم ! إن عدداً كبيراً قد جاءه التحرير متأخراً جداً ، فجاك دوكور J. Decour لم يعد بيننا إذ قتله النازيون رمياً بالرصاص . ومات فرنسوا فرنيه F. Vernet فى معسكر داشاو . ومات كذلك ماكس جاكوب M. Jacob فى معسكر درانسى ، وقتل جان بريفو J. Prévost فى المقاومة السرية ، وأما جان كاسو J. Cassou وأندريه مالرو A. Malraux وجان بولان J. Paulhan ، ولويس شوفييه Louis Martin-Chauffier فقد نجوا من الموت ولكنهم لم ينجوا جميعاً من العذاب . ونستطيع أن نقول هذا الشئ نفسه عن جميع الكتاب تقريباً الذين ثبتت أسماؤهم فى لوحة الشرف للآداب المعاصرة . « وأنا أعرف أن هناك من يقول : لقد ماتوا فى سبيل شئ تافه . فما كانت بعض المعلومات (التى لم

تكن دائماً مضبوطة) تستحق أن يضحى المرء من أجلها بحياته ، ولا كان منشور أو جريدة سرية (سيئة التأليف أحياناً) تستحق أن يموت المرء فى سبيلها . فالى من يقول ذلك أقول : لقد ضحوا بحياتهم لأنهم كانوا فى جانب الحياة ، لأنهم كانوا يحبون أشياء قد تبدو تافهة كبعض الأغانى وبعض البسمات . و يمكنك أن تضم يدك على نحلة حتى تقضى عليها، ولكنها لن تموت دون أن تلدغك . وستقول إن ذلك أمر تافه . نعم ! إنه لأمر تافه ، ولكنها لو لم تلدغك ، لكان النحل كله قد فنى منذ زمان طويل . مات أولئك الكتاب لأنهم كانوا يحبون الحياة ، وذلك الحب هو سبب ما تجده فى كتاباتهم من جد واضح ومن سهولة بل من خفة أحياناً . ويكتب سارتر Sartre كثيراً عن فكرة الموت هذه دون أن تخونه شجاعته لحظة واحدة : « كنا نجعل من النفى والأسر ، والموت بصفة خاصة ، (هذا الموت الذى نخفيه بمهارة فى الأوقات السعيدة) موضوعاً دائماً لاهتمامنا ، وكنا نتعلم أن تلك الأشياء ليست حوادث يمكن منعها ، أو تهديدات دائمة خارجة عنا ، ولكنها نصيب لنا وقدر مكتوب علينا ، وأصل لوجودنا كأفراد من بنى البشر . وكنا نعيش فى كل لحظة تلك العبارة العادية « الانسان فان » ، كنا نحياها بأوسع ما تشتمل عليه من معنى . وكان اختيار كل واحد منا لطريقه اختياراً صحيحاً ، لأنه كان يحدث فى مواجهة الموت ، ولأنه كان يفضل الموت على الهوان . . . »

وترى اللهجة متغيرة فى كتابات جان برفو ، ولكن العزم والتصميم لا يتغيران . ففى إحدى أغانيه يقول :

لست بآسف على شئ
و إنى لراض بنصيبى من الدنيا
فقد عشت عيشة هنيَّه
وذلك الذى أفعمت نفسه
بثلاثة أطفال وامرأة
يستطيع أن يموت عارياً
وهو راض

أتريد أن يفيض المرح على
رسمى الدارس ؟
فليحمل اسمى قارب ذو مجدافين
ولتكن له سارية وشراع مثلث
وليكن خفيفاً رقيقاً جميلا

لقد قيل إن كل شئ فى فرنسا ينتهى بالأغانى . وفى هذه المجموعة يبدأ كل شئ بأغنية مثل أغانى أراجون الرائعة، وأغانى سيرفييل Supervielle

الشجية . وكل شئ ينتهى بالتعذيب والموت . (وما أعجب أن تكون رءوس النصوص المجموعة هنا ، قصيدة محطمة أو قطعاً متناثرة من إحدى الأغنيات : باريس الحزينة ، نشيد النار ، أسلحة الألم ، مباركة البؤس ، سرب ميت ، خير من الغار على الرءوس ، خلود من لم أرهم . . .)

وإن المزايا الأدبية لما نقرؤه فى هذا الكتاب لهى جديرة بتلك القصيدة ولقد جمعه جان بولان تحدوه تلك الارادة القوية الطيعة التى سمحت له بأن يصدر تباعاً أو فى وقت واحد هذه المجلات : *La Nouvelle Revue Française, Mesures, Commerce, Les Cahiers de la Pléiade.*

وإنا لواجدوه بأكمله فى هذا الكتاب حيث نراه كريماً ولكن فى غير تنزل عن حقوقه ، وطنياً وحراً ، كلاسياً ومقداماً . إنه هو بمثابة الضمير فى آدابنا . وها نحن أولاء، قد عرفنا أخيراً أننا كنا مخطئين فى قولنا : المشاعر الطيبة تنتج أدباً ضعيفاً ، وإنه لكتاب رائع (ولكن هل لى أن آسف على أن بعض الكتاب مثل René Char (١) واثنين أو ثلاثة آخرين قد تخلفوا عن هذه المجموعة ؟) .

وتبقى لنا أمنية ، هى أن تحتفظ الجمهورية العاملة اليوم فى وضح النهار بفضائل الجمهورية التى كانت تعمل فى الليل وفى الصمت ، كما قال سارتر ، أن تحتفظ بفضائل الجمهورية التى كانت تعد لنا أياماً سعيدة مشرقة ، ولنتمن أن تكون أيامنا المقبلة سعيدة مشرقة .

ابيبامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) أصدر René Char منذ قليل يوميات ضابط فى القوات الفرنسية الحرة بعنوان *Feuilles d'Hypnos* .